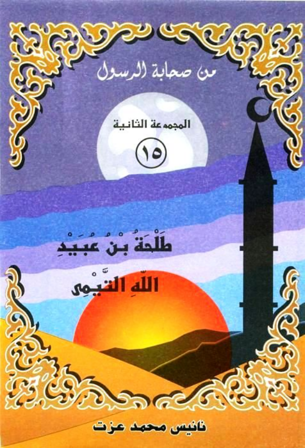

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١٥
طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ
اللّهِ التَّيْمِى
نانيس محمد عزت

طلحة بن عُبيد الله

اتّفقَ ياسرٌ وصَديقُهُ أسامَة ، أن يَقوما برحلَـةٍ إلى حَدائـقِ حُلوانَ غدًا ، فيَرْكَبا إليها « مترو الأنْفاق » ، ويقضِيا يَومًا جَميـلاً مُمتِعًا بـينَ الحدائـق ، ويَـزوروا مُتحَـفَ الشَّـمَع ، ومصانِعَ الحَديدِ والصُّلب .

وفي صَباحِ الغَدِ فوجِئَ ياسرٌ بـاعْتِذارِ صَديقِهِ أُسامَة ، وطَلبِهِ تأجيلَ الرِّحلَةِ إلى صَباحِ يوم الجُمُعَةِ القادِمِ ، لذَهابِـهِ معَ والِدِه إلى مَحلِّ عَملِه .

قالَ ياسِر : إنّي أعجبُ يـا والِدى لأمرِ أُسامَة ، فهـو يُصِرُّ على العَمَـلِ معَ والِـدِه ، معَ أنَّ والِـدَه يُنفِقُ عليـهِ بسَخاءِ ولا يَرفُض له طَلَبا ، فلِماذا يُرهِقُ نفسَه بالعَمل ؟

قالَ والِدُه : ولِماذا العَجَب ؟ إنَّ أُسـامَةَ غُـلامٌ نَشيـطٌ ، يُحبُّ أن يَعتمِدَ على نَفسِه ، فليسَ العمَـلُ وَسيلةً لجَمـعِ المـالِ فقـط ، ولكنّـه كذلـك غايَـةٌ تُساعِدُ الإنْسانَ علـى

تَكوينِ شَخصيَّتِه . ثُمَّ إنَّ ما تَشتَريه من مالِكَ الَّذى اكْتَسبَته بعَرقِ جَبينِك ، تكونُ له دونَ شكٍّ قيمَةٌ خاصَّةٌ عِندك .

قالَ ياسِر : ولكنَّ أُسامَةَ لا يزالُ صَغيرَ السِّنِّ يا أبى .

قالَ والِدُه : ليسَ لِلعمَلِ سنٌّ مُعيَّنة ، وقد حثَّنا دينُنا الحَنيفُ على العَملِ وحبَّبنا فيه . أتَدرى يا ياسِرُ أنَّ مَوقِفَ صَديقِكَ أُسامَة ، ذكَّرنى بموقِفِ أحدِ صَحابةِ الرَّسولِ قبلَ أن يُسلِم ، فقد نشَأَ فى بَيتٍ يَنعَمُ بالتَّرفِ والثَّراء ، ويُعَدُّ من أشرافِ مكَّة ، ولم يكنْ من الشَّبابِ المُدلَّلِ يَقضى وقتَه فى اللَّهوِ واللَّعِب ، ولكنَّه اعْتَمدَ على نفسِه ، وشقَّ طَريقَهُ فى الحَياة ، فعَمِلَ بالتِّجارةِ وجابَ البِلادَ شَرقًا وغَربًا فى طَلبِ الرِّزق . فلم يَكن يَرضَى إلاَّ بالمالِ الَّذى يَكسِبُه بكَدِّه وتَعبِه ، ويَرفُضُ المَعيشَةَ الهَيِّنَةَ السَّهلَة .

قالَ ياسِرٌ مُتشوِّقًا لمَعرِفَته : من هو يا أبى ؟

ابتسمَ والِدُه وقال : حَذِّر يا ياسر ، وسأقولُ لك بعضَ المَعلوماتِ عَنه ، وعليكَ أن تُخمِّنَ من يكون :

إنّه أحدُ العَشرةِ المُبَشَّرينَ بالجنَّة .

وأحدُ الثَّمانيةِ السّابقينَ إلى الإسْلام .

وأحَدُ الخَمسةِ الّذينَ أسْلَموا على يَدِ أبى بكرٍ الصِّدّيق .

وأحَدُ السِّتّةِ الّذين حصَرَ فيهم عُمرُ بنُ الخَطّابِ الشُّورَى ، لاخْتيارِ من يتولّى خِلافَةَ المُسلمينَ بعدَه .

وأحَدُ الّذين تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ ـ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ـ وهو راضٍ عنهم .

وهوَ الّذى بَشَّرَه ـ صلّى اللهُ عَليهِ وسلّم ـ بأنّه جارُهُ في الجنَّة .

أجهدَ ياسِرٌ نَفسَه فى التّفكير ، ولكنّه قالَ أخيرا وهو مُتحيّر : لم أدرِ بَعدُ من يكونُ يا أبى ؟ هل لكَ أن تكلّمَنى عنه أكثَر ؟

قالَ والِدُه : لقد قالَ عنه رسولُ اللّهِ ـ صلّى اللّـه عليهِ وسلّم ـ : من سرَّهُ أن يَنظُرَ إلى رَجُلٍ يَمشي على الأرضِ وقد قَضى نحبَه ، فلينظُر إلى طَلْحَة .

ولم يَستطع ياسرٌ مع ذلك أن يُخمِّنَ من يكونُ صاحبُ تلك الشّخصيَّةِ الفَريدَة ، فقرَّبها إليه والِدُه بقَولِه : لقد لقَّبه ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ بـ « طَلْحة الخَيْر » و« طَلْحةَ الجَواد » و« طَلْحَةَ الفَيّاض » . وقالَ عنه أبو بكرٍ الصِّدّيق : إذا ذُكِرَ يومُ أُحد ، فذلِكَ كانَ يَومَ طَلْحَة .

هل عَرفتَ الآنَ من هو يا ياسِر ؟

قال ياسِر : قد عَرَفتُه بالطَّبع ، فهو طَلْحة .

ابتسمَ والِدُه وقال : يا لَلعَبقريَّةِ يا ياسِر ؟ ألم تَعرفْ بعدُ طَلْحةَ من ؟

هزَّ ياسِرٌ رأسَه نافيا ، فأكْمَلَ والِدُه كلامَه : هو طَلْحةُ ابنُ عُبيدِ اللّه . أتُحبُّ أن تَسمعَ قِصَّتَه ؟

قالَ ياسِرٌ مَسرورا : بالطَّبعِ أُحبُّ أن أسْمَعَها . وأَعتقِدُ أنّها قِصَّةٌ تُبشِّرُ بالخَير .

راحَ والِدهُ يَحكى قِصَّـةَ طَلحة بـنِ عُبيدِ اللّه ، قـال : كان طَلحةُ كما قُلتُ لك قَبلُ مـن أشْرافِ مَكّة ، وكـانَ يُحبُّ العَملَ والتِّجارَة ، وذاتَ يوم وهو فى تِجارَةٍ لَـه بـأرضِ «بُصرَى» ، إذا بـأحَدِ الرُّهبان يُنـادى : يـا مَعشَرَ التُّجّـار ، سَلوا أهلَ هذا المَوسِم : أفيهم أحدٌ من أهلِ الحَرَم ؟

فردَّ عَليه طَلحَة : نعم ، أنا من أَهلِ الحَرَم .

قالَ الرّاهب : هل ظَهرَ فيكم أَحمد ؟

ردَّ طَلحة : ومنْ أحمد ؟

قالَ الرّاهب : أحمدُ بنُ عبدِ اللّهِ بنُ عبدِ المُطَّلب . هـذا شَهرُه الّذى يظهرُ فيـه . وهـو آخرُ الأنْبياء ، يَخـرُجُ مـن أرضِكُم من الحَرَم ، ويُهاجرُ إلى أرضٍ ذاتِ حِجـارَةٍ سـودٍ ونخيلٍ وسِباخ ، يَنِزُّ فيها الماء . فإيّاك أن تُسبَقَ إليهِ يا فَتى .

قالَ ياسِرٌ مُتَعَجِّبا : إذا كـانَ اليَهودُ والنّصارَى موقِنِين يا أبى بنُبوَّةِ مُحمَّد ـ صلّى اللّه عليهِ وسـلَّم ـ وأنّه آخرُ الأنْبياء ، فلِماذا لم يُؤمِنوا به ؟

قالَ والِدُه : إنّه يا وَلدى الكِبرُ والعَصبِيَّةُ القَبَلِيَّةُ.

* * *

وما أن سَمِعَ طَلحةُ بنُ عُبيدِ اللّهِ كلامَ الرَّاهِـب ، حتى تَرَكَ كـلَّ مـا يَخصُّـه .. تَـركَ القافِلَـةَ وعَـروضَ التِّجارَة ، وأسْرعَ فامْتَطى جَوادَهُ وعادَ إلى مكَّة ، ليتحقّقَ بنفسِهِ مـن صِحَّةِ كَلامِ الرّاهب .

وما إن وصَلَ إلى مَكَّةَ حتّى سألَ أهْلَه : أكانَ من حَدَثٍ بَعدَنا فى مكَّة ؟

قالوا : نَعم . فإنَّ مُحمَّدَ بنَ عبـدِ اللّـهِ يَزعُـمُ أنّـه نَبـيّ ، وقد تَبِعَه أبو بكرِ بنُ أبى قُحافَة .

فأسْرعَ طَلحةُ بنُ عُبيدِ اللّه إلى أبـى بكر ، وقصَّ عَليـهِ

النّبأ . فاندهشَ أبو بكرٍ من أمرِ الرّاهِب ، وصَحِبَ طَلحةَ إلَى الرَّسولِ ــ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ــ ليَقُصَّ عَليـه نَبأه ، ولِيَسمعَ ما يقولُ الرَّسولُ فى أمرِه .

وما أن لَقِيَ طَلحة مُحمَّدًا ــ صلّى اللّـه عليهِ وسلّم ــ واسْتَمعَ إلى بَعضِ آياتِ القُرآنِ الكَريم ، حتّى أشرقَ فُؤادُهُ بالنّورِ وأعلَنَ إسْلامَه ، فكـان أوّلَ شابٍّ مـن قَبيلَةِ تيم يدخُلُ فى الإسْلام .

وعلَى الرَّغم من جاهِ طَلحةَ بنِ عُبيدِ اللّهِ فى قومِه ، وثَرائهِ العَريضِ وتجارَتِهِ النّاجحَة ، إلاّ أنّه نـالَ حَظَّهُ مـن الاضْطِهادِ والعَذاب فيما بَعد ، وكانتْ أُمُّه من أشدِّ النّاسِ جَزَعا لإسْلامِهِ ، فقد كانتْ ترجو لطلحةَ أن يَسودَ قَومَه .

فلمّا لم تُفلح مَعه أساليبُ الإقْناعِ والحيلَة ، لجأت إلى تَعذيبِه ، فأوثَقتْ يديه إلى عُنقِه ، ودَفعت النّاسَ إلى ضَربِهِ

وذاتَ يومٍ بينما كان هو وأبو بكرٍ ينويان الصَّلاةَ عند الكَعبةِ ، إذا بَنوْفَلِ بن خُوَيلدٍ يُقيِّدُهما معًا بحَبل ، ليَمنعَهُما من الصَّلاة . وبذلك سُمِّيا بالقَرينَيْن .

وتقبَّلَ طَلحةُ ما نزل به من العَذاب بنَفسٍ مُؤمنةٍ راضِيَة ، فتحمَّل الحِصارَ مع إخْوانِه المُسلمينَ داخلَ شِعبِ أبى طالبٍ ثلاثَ سَنوات ، حتَّى أكلَ معهم وَرقَ الشَّجر ، ولاكَ الحَصَى . فلم يزِدْ الابْتلاءُ المُسلمينَ الأوائلَ إلاَّ قُوَّةً وثَباتا .

قال ياسر : لقد تَحمَّلوا الكثيرَ والكثيرَ من أجلِ نَشرِ الإسْلام .

قالَ والِدُه : بالطَّبعِ يا ولَدي . لقد صهرَهُمُ العَذابُ والاضْطِهاد ، ليكونوا قاعِدةً قويَّةً لِبناءٍ شامخٍ باقٍ إلى يومِ الدِّين .

* * *

وهاجرَ طلحةُ إلى المَدينَة ، واستقرَّ المُسلِمونَ هناكَ وذاقوا طعمَ الرّاحة ، واستَطاعوا أن يُمارِسوا شعائِرَهُم لأوَّلِ مرَّةٍ فى أمان ، دونَ خوفٍ أو اضْطِهاد .

وأراد الرَّسول ــ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ــ وهو فى المَدينة ، أن يَستَفيدَ من خِبرَةِ طلحَة ، ومَعرفَتِهِ دُروبَ الطُّرق ، حيث إنَّ اشْتِغالَهُ بالتِّجارةِ أتاحَ له ذلك ، فأمرَهُ أن يَتحسَّسَ ــ هو وسعيدُ بنُ زيد ــ أخْبارَ قافلةِ أبى سُفيان ويأتِياهُ بأخبارها .

واستَطاعَ أبو سُفيانَ أن يَنجُوَ بالقافِلَة ، وخَرجتْ قريشٌ كلُّها للدِّفاعِ عن أمْوالِها وتِجارَتِها . ووقعتْ عندئذٍ غزوةُ بدر . ولم يشهدْ طلحةُ الغزوةَ لخُروجهِ هو وسَعيدٌ فى المُهمَّةِ الّتى كلَّفَهُما بها الرَّسولُ ــ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ــ ولذلك اعْتبَرَهُما الرَّسولُ مُشتركَين فى الغَزوَة ، وأشْرَكَهُما فى الغنائم .

وجاءتْ غزوةُ أُحُد ، أو يَومُ طَلحَة .

سألَ ياسر : لماذا سُمِّيَ يومُ أُحُدٍ بيَوم طَلحَة ؟

قالَ والِدُه : اسْتَمِعْ جيِّدًا لما أَقولُ لتَعرفَ السَّبب . فأنتَ بالطَّبع تَعرفُ قِصَّةَ غَزوةِ أُحُد ، وخُروجَ قُرَيشٍ في ثَلاثَةِ آلافِ مُقاتلٍ لتَثأرَ لقَتلاها في غَزوةِ بـدر ، وخرجَت معهـم الأَحـابيشُ وأهلُ تُهامَةَ وجماعةٌ مـن بنـي كِنانَـة ، يَقودُهم أبو سفيانَ بنُ حرب . وكانَ النَّصرُ في أوَّلِ الأمرِ حَليفًا للمُسلِمين ، إلى أن عَصَـى الرُّمـاةُ أمـرَ الرَّسـول ــ صلَّى اللّـه عليهِ وسلَّم ــ ونَزلوا عنِ الجَبَل فـانقلبتْ المَوازين ، ومَلكتْ قُريشٌ زِمامَ المَعركَة .

فأسرعَ طَلحةُ فنادَى أصحابَهُ للبَيعَةِ على المَوتِ دونَ رَسولِ اللّهِ ــ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّم ــ فأحاطوا بالرَّسولِ فكانوا كالدُّروعِ البَشَرِيَّةِ الَّتـي أحاطتْ بـهِ ــ صلَّى اللّه عليهِ وسلَّم ــ فأصابَهُ سَهمٌ في يَدهِ شلَّ إصْبَعَه ، ثم أصابَـهُ

سَهمٌ آخرُ فى رَأسِه نَزعَهُ بيدِه . وتقدَّم طلحةُ فحمَلَ الرَّسولَ ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ حتّى صَعِدَ به إلى صَخرةٍ عاليةٍ على الجَبَل ، وهو يقول : بأبى أنتْ وأُمّى يا رسولَ اللّه !

وابتسمَ الرَّسولُ ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ وقال : إنّك طلحَةُ الخَير ، أوجبَ طَلحَة ـ أى أوجبَ طَلحَةُ الجَنّة ـ .

وعندَما أقبلَ أصْحابُهُ لإسْعافِ الرَّسول ، قال ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ اترُكانى وانْصرفا إلى صاحِبِكُما ـ يُريد طَلحَة .

فإذا بطَلحةَ تنزِفُ دِماؤه ، وفيه بِضْعٌ وسَبعونَ ضَربةَ بسَيْف ، أو طَعنَةَ برُمْح ، أو رَميَةً بسَهم ، وإذا هو قد جُرِحتْ كفُّه ، وسقطَ فى حُفرةٍ مَغشيًّا عليه .

قالَ ياسر : إنَّه يا أبى فارسٌ مِغوار ، وإنَّ ما فعله يَنِمُّ عن حُبٍّ وإيمانٍ حَقيقيَّين برَسولِ اللّهِ ـ صلّى اللّه عليهِ

وسلّم ـ .

قالَ والِدُه : ثمَّ شهِدَ طَلحةُ جَميعَ الغَزَوات . وشارَكَ في صُنعِ النَّصرِ فكانَ له في كلِّ غزوةٍ لقبٌ يليقُ به . ففي غَزوةِ العُسْرةِ سَمِّيَ « طَلحةَ الفَيَّاض » لكثرةِ ما بذلَهُ من مالِهِ ونَفسِه . ويومَ حُنَيْنٍ سُمِّيَ « طَلحةَ الجَواد » لكثرةِ ما بذلَ فِداءً وعَطاءً بعد فِرار جَيشِ المُسلِمينَ في أوّلِ المعرَكَة .

ونجدُ أنَّ عَطاءَ طَلحةَ لم يكنْ عطاءً في المَعارِكِ فَقط ، ولكِنَّهُ امتدَّ لِيَكونَ عَطاءً ماديًّا ، فقد كانَ أكثَرَ المُسلِمينَ ثَراءً وأنماهم ثروة ، فجعلَ ثروتَه كلَّها في خِدمَةِ الإسْلام ، فأنفَقَ على الإسْلامِ بغَيرِ حِساب .

وتحكي زَوجَتُه أنّها دخلتْ عليهِ ذاتَ يَومٍ فرأتْهُ مَهموما ، وعِندَما سألَتْه أجابَها : المالُ الّذي عندي قد كَثُرَ حتى أهَمَّني وأكْرَبَني .

فقالتْ له : لا عَليك ! اقْسِمه .

فدعَا إليه النّاس ، وراحَ يَقسِمُهُ عَليهم حتّى ما بَقِيَ منه دِرهَم .

فكانَ طَلحةُ جَوادًا ، لا يَدعُ أحدًا من بنى تيم عائلا إلاّ كَفاه مُؤنتَه ومُؤنةَ عِياله ، فكانَ يُزوِّجُ إماءَهُم ويَخدِمُ عائلَهم ويَقضى دَيْنَ غارِمِهم .

قالَ ياسر : إنّه فى الحَقيقَةِ يَستَحقُّ لقبَهُ « طَلحةَ الجَواد » ، فلم يُطلَق عليه هذا اللّقبُ من فَراغ .

وخرجَ طلحةُ مع السَّيِّدةِ عائِشة ، زوجَةِ الرَّسولِ ــ رَضِيَ اللّهُ عنها ــ على رَأسِ جَيشٍ يُطالِبُ بدَمِ عُثمانَ بن عَفّان ، وعزَّ على عليٍّ بن أبى طالب ــ كرّمَ اللّه وجْهَه ــ أن يَرَى زوجَ الرَّسولِ ــ صلّى اللّه عليه وسلّم ــ تُقاتِلُ جُندَه ، فنادَى طَلحة : يا طَلحَةُ أجئتَ بعُرسِ رَسولِ اللّهِ تُقاتِلُ بها وخَبَّأتَ عُرسَكَ فى البَيْت ؟

وتأثَّر طَلحةُ من كَلامِ عَلِىّ ، وتبيَّـنَ لـه أنَّ جانِبَ عَلِىٍّ هو الّذى على حقٍّ ، فانْسحَبَ من المَعركَـة ، وكـانَ ثَمنُ انْسحابِهِ أن فَقَدَ حَياتَه ، فقدْ عـزَّ على مَروانَ بنِ الحَكَمِ انْسحابُهُ مـن المَعركَـة ، فرمـاهُ بسَهمٍ أودَى بحَياتِـه . فقـدْ كانَتِ الشّهادَةُ مَذخورَةً له .

ألَمْ يَقُل عنه ـ صلّى اللّه عليهِ وسلّم ـ هـذا ممَن قَضَى نَحبه . ومن سَرَّه أن يَرى شَهيدًا يَمشى على الأَرض ، فلينظُر إلى طَلحة .

قـال ياسِر : إنّها قِصَّـةُ فِـداء وتَضحيَـةٍ رائعةٌ يـا أبى ، فشُكرًا لك يا أُسامةُ لاعْتِذارِكَ عـن الرِّحلَـة ، فقـد أتـاحتَ لِىَ الفُرصةَ لسَماعِ قِصَّةٍ رائعة .

قـالَ والِـدُه : المُهِـمُّ أن تكُـونَ قـد اسْـتَفدتَ مِنهـا ، واستَوعبتَ ما فيها من عِبَرٍ وعِظات .